في ذكرى هزيمة حزيران

النصر باستدخال الهزيمة

الدكتور عبد الستار قاسم

15/ربيع أول/1422

تولد الصعاب والظروف القاسية ردود فعل متحدية. هذه هي سيرة التاريخ مع الأمم الحية التي واجهت أو تواجه التحديات. التحدي يولد تحديا مضادا وتندفع الأمم نحو الاستنفار وشحذ الهمم وحشد الطاقات لكي تصنع لنفسها مستقبلا رغما عن كل العراقيل. وكلما عظم التحدي عظمت المسؤوليات وكبرت المهمات وارتفعت الآمال واتسعت الإنجازات. هكذا كانت الأيام القاسية بالنسبة للعديد من الأمم التي وجدت فيها امتحانا لقدرتها على التحمل والصبر وتجميع أسباب القوة والعمل باتجاه الغلبة والتفوق.

لحقت بالعرب هزيمة عام 1967 يندر أن يكون بخزيها مثيل في التاريخ. أمة مترامية الأطراف ولت الأدبار مذعورة أمام حفنة ممن صمموا أن يقيموا دولة رغم أنف العرب. ذهلت الأمة من هول الحدث وأسرع قادتها إلى الخرطوم صارخين متوعدين. صدرت عن القمة اللاءات الثلاث وتفاعل الناس بإعادة بناء الجيوش. سار البناء حثيثا في كل من مصر وسوريا ولكن فرحة الأمة لم تكتمل عام 1973 وبقيت إسرائيل مهيمنة عسكريا رافضة كل أشكال المبادرات.

أصرت إسرائيل منذ حرب حزيران (يونيو) على أن كل المبادرات السلمية مصيرها إلى الفشل وأن على العرب إن أرادوا الوصول إلى حل أن يجلسوا على طاولة المفاوضات الثنائية المباشرة. وقالت أن نتيجة المفاوضات هي الحل بين الدول العربية منفردة وبينها شريطة أن تكون المتطلبات الأمنية الإسرائيلية المحور الأساسي في الترتيبات النهائية. أما بالنسبة للضفة الغربية وغزة فقد أبدت استعدادها لتسليم السكان لأي طرف عربي مع تعديلات حدودية ونكران تواجد أي جيش عربي غربي النهر. وبناء عليه عرضت على الملك حسين عودة الإدارة الأردنية، الأمر الذي كان مرفوضا عربيا وفلسطينيا.

قال العرب في الخرطوم لا لكل من المفاوضات والصلح مع إسرائيل والاعتراف بها. لكن بعضهم، وبالتحديد مصر والأردن، اعترفوا بقرار مجلس الأمن 242 الصادر في تشرين/2 (نوفمبر) عام 1967 والذي يدعو دول المنطقة إلى التفاوض والاعتراف المتبادل ولم يكن حينها حبر مقررات الخرطوم قد جف. أما سوريا فاعترفت بالقرار بعد سنتين، ولحقت بها منظمة التحرير الفلسطينية عام 1988. وبالرغم من هذا استمر الإعلام العربي بضخ أقوال ودعايات للمواطن العربي لم تكن تعبر عن الحقيقة. ومع الزمن، وبالتحديد بعد حرب 1973، بدأ العرب يتهافتون باستحياء ثم بتحفظ ثم بدون خجل إلى التفاوض مع إسرائيل، إلى أن اعتبروا مؤتمر مدريد لعام 1991 انتصارا ديبلوماسيا عربيا. وحسب قائد فلسطيني، انتصر العرب والفلسطينيون في مدريد لأنهم جروا إسرائيل إلى طاولة المفاوضات رغما عنها، وأضاف بأن العرب سيستمرون في الهجوم السلمي إلى أن تجد إسرائيل نفسها أمام واقع لا تقوى على تحديه.

لم يحترم العرب كلامهم، وتجاوز الفلسطينيون كل مواثيقهم وعهودهم. ذهب الفلسطينيون إلى مدريد وميثاقهم الوطني الفلسطيني الذي ينادي بتحرير فلسطين ورفض مشاريع التسوية والتصفية يجلس يتيما مذموما في زاوية الإهمال. تنازل العرب عن كل ما نادوا به من مبادىء ومثل، وتراجعوا عن كل ما زمجروه من خطابات وتصريحات، وابتلعوا كل ما حاولوا انتحاله من شجاعة وبطولات. ساقتهم الولايات المتحدة وإسرائيل إلى طاولة المفاوضات الثنائية المباشرة في عاصمة البلاد التي هُزم فيها العرب المسلمون.

الأمر ليس مفاجئا، ولم يكن من العسير أن يتنبأ المطلع على أحوال العرب أخبار المستقبل. للهزيمة مقومات كما للنصر مقومات، ولا أظن أن المتتبع لأحوال الأمة لا يرى تفوق مقومات الهزيمة على مقومات النصر. لم تحصل الهزيمة إلا نتيجة عوامل ذاتية وموضوعية يمكن التعامل معها بهدف تغييرها، وبالتأكيد لم تكن مجرد نقمة أُنزلت على رؤوسنا من السماء. وبدل أن نتعقبها بموضوعية لنصلح من أحوالنا ذهبنا بعيدا في تحليلاتنا في محاولة للإصرار على ما نحن فيه والذي قادنا إلى الهزيمة. ويمكن تلخيص عوامل استمرار الهزيمة وآثارها بما يلي:

أولا: لم نتجه منذ اللحظة الأولى نحو التفسير العلمي للهزيمة من خلال تحليلات وتقديرات علمية ورحنا بدل من ذلك نعطيها بعدا خارجا عن العقل والتحليل العلمي. فمثلا ساد تعليل يقول بأن الله انتقم منا بسبب بعدنا عن الدين. هذا يكون صحيحا في حال فهمنا الدين فهما علميا ووقفنا عند متطلباته العلمية، لكن قضايا ثانوية استوقفتنا على حساب الجوهر الإسلامي ولم تسعفنا في التغيير المطلوب. حاول البعض أن يقول أن الهزيمة عبارة عن قضاء وقدر ولا رادّ لقدر الله، وذلك في محاولة للجم التفكير العلمي على اعتبار أن التشكيك بإرادة الله عبارة عن ذنب يرتقي إلى الكفر.

ثانيا: لم يحاسب الشعب قادة الهزيمة. خرجت جماهير مصر تطالب بعودة عبدالناصر إلى الحكم بعد أن استقال وحمّل نفسه المسؤولية، أما ملك الأردن ورئيس سوريا فبقيا على قمة الهرم وكأن شيئا لم يكن. لم يحرك العرب في الأردن وسوريا ساكنا. كان تصرف الشعوب العربية بمثابة تصريح لاستباحة حرمات الأمة من قبل حكامها وحق عليها القول "استخف قومه فأطاعوه" لم تختلف الشعوب جذريا عما كانت عليه عام 1967 وما زال الحكام يرتعون ويقلبون شعوبهم بالطريقة التي يرونها مناسبة.

ثالثا: لم يقم العرب وعلى الأخص دول الطوق بإجراء التغييرات المناسبة بهدف صنع أجواء جديدة تنطلق بالأمة وعلى رأس ذلك الانطلاق بحرية الإنسان. الأمة ضعيفة لأسباب كثيرة ولكن ضعف الإنسان أقواها. الإنسان العربي ضعيف لأنه غير حر. إنه مكبوت ومقهور ومحاصر من قبل ثلاث سلطات قاسية وهي السياسية والاجتماعية وتلك التي تحتكر الدين وكأنها الناطقة باسم السماء. لم تعمل السلطة السياسية على تحرير الإنسان سياسيا والتمهيد لتحريره اجتماعيا ومن تقاليد أصبحت تُلصق بهتانا بالدين الإسلامي. ومن هو الحاكم الجريء العظيم الذي يمكن أن يصنع أجواء حرة تقود المرء إلى القوة والمشاركة الفعالة في الأعمال العامة مهددا بذلك مصالحه وارتباطاته؟

الأمة ضعيفة ما دام الإنسان مقهورا، والحاكم لا يمكن أن يكون سويا ما دام يصر على حرمان شعبه ومواطنيه من حرياتهم، وهو بالتالي يصر على استمرار الهزيمة ليست فقط أمام إسرائيل وإنما على مختلف الأصعدة. المستبد لا يقوى على صناعة السلام أو الحرب، ولا يتقن إلا التآمر والفساد والإفساد والإيقاع بالآخرين، ولا يتفوق عليه غباء إلا من يأمل خيرا بأقواله. إنه لا يملك إلا أن يزين الهزيمة بأغلفة من التبريرات والصور الوهمية ليصبح مذاقها مستحسنا فيستدخلها شعبه مترنما على سكرات نكران واقعه.

يرتبط تقييد الإنسان بالتخلف العلمي. قفز عدونا قفزات هائلة في مختلف المجالات العلمية وحقق إنجازات تقنية مذهلة منذ عام 1967 ونحن ما زلنا نراكم أعدادا هائلة من الخريجين الجامعيين دون محتوى علمي عملي. عدونا يصنع التقنية ونحن نتطفل على الأمم باستيراد التقنية، لكن فقط تلك التي يقررون تصديرها لنا. يبحث العدو على الدوام في كيف يتقدم علميا وتقنيا، ويبحث علماؤنا الراغبين في المحافظة على علمهم عن دول يلجئون إليها. ذلك لأن النشاط العلمي يتطلب أجواء حرية وموضوعية وأنظمة قضائية وتشريعية لا يعلو فوقها أحد. التخلف العلمي هو أحد أعمدة الاستبداد وقد حرص القادة على المحافظة عليه.

وهذا مرتبط بالتالي بالتغييرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي من المفروض أن تجتاح كياننا لكي نكون مؤهلين لمواجهة العدوان. ليس من الممكن حشد الانتماء للقضايا والولاء للوطن بينما يرى المواطن كل أشكال الفساد والظلم والانقضاض على حقوقه الشخصية والعامة، ولا يمكن أن يتأتى ذلك بينما تتربع نسبة قليلة جدا من الناس على الثروات العامة ويكد أغلبهم بحثا عن لقمة خبز مغموسة بندى الجبين. وهكذا هو الأمر بالنسبة للتركيبة الاجتماعية التي ما زالت تقوم على مبدأ الدم الأزرق مقابل دم العوام. التركيبة القبلية تميز أوضاعنا الاجتماعية وهي تتغذى على الكفاءة والاستحقاق، ذلك لأن الاستبداد لا يقوم إلا على سحق كرامة الناس وعظامهم إن تطلب الأمر.

يخلق العجز عبقرية من نوع خاص يقوم على قدرة تبريرية تتطور كما ونوعا مع الزمن. فمثلا أرغمنا إسرائيل على الجلوس على طاولة المفاوضات مع منظمة التحرير بعد أن كانت تُصنف منظمة إرهابية. وحاصرنا إسرائيل على الساحة السياسية واستطعنا كسب أوروبا إلى جانبنا، ونحن على الطريق نحو تحييد الولايات المتحدة. وما أجمل أن تجلس مع مسؤول عربي أو فلسطيني ليشرح لك عن الإنجازات والانتصارات التي تم تحقيقها عبر السنوات والتي ما زلنا مستمرين في تحقيقها. على الأقل تستطيع أن تعيش معه لحظات من الزمن تبعدك عما نحن فيه من ذل وهوان. واصبر معه وعليه كأنك تشاهد على الشاشة مسلسلا لممثل فاشل.